قصة قصيرة

هدف في بيت الوحشة

طيبة محمد الإدريسي
- السعودية -

ها هو ذا يقتلع عينيه لتلتصق على أقدام الصبية وهم يمارسون لعبة كرة القدم . . أمام ساحة دارهم الواسعة وجسده المثقل المطروح بجوار جدران باب البيت يتحول إلى عيون تحدق في أقدامهم . . وهي تجري هنا وهناك تركض خلف الكرة كركضه حول طرقات الأمل الضائع في متاهات الحياة.

تلك الأقدام السريعة التي تحمل أجسادهم الصغيرة . . وأيديهم تلوح إلى بعضها بعضاً بإشارات تومئ بالتواصل وتمسح العرق بأطراف ملابسهم.

مازالت عيناه تتابعان أقدامهم . . ياللروعة .!! كم تستهويه هذه الأقدام وتثير في داخله مشاعر غريبة . . إنه يحبها ، ويحبها جداً.

نعم يحب الأقدام التي تحمل الجسد. والجسد الذي يحتضن الرأس ، والرأس الذي يعطي الإشارة بتحريك أطرافه ، وتحرك اليدان اللتان يراهما تلوحان في الأعلى كلما سددوا هدفاً فيرفع يديه لهم ويصيح «هدف .. هدف». فيشير له المنتصرون بعلامة القوة والنصر.

ينسى ذاته . ويتقمص أرواحهم فكأنهم جميعاً هو ، وعندما ينتهي فريق الأطفال من اللعبة يجتمعون حوله. ضاحكين وهم يغسلون وجوههم بالماء البارد ، ويستلقون على أعتاب الأبواب المجاورة « ودكة » دارهم الفسيحة ، ويرتدون أثوابهم ، وينصرفون لصلاة المغرب واحداً تلو الآخر. ويبقى هو متلفتاً يتأمل في شرود .. كيف إذا شارك الصبية اللعب ؟!!

هل سيتصرف كما يفعلون ؟؟ هل كان سيسدد للمرمى أهدافاً صائبة ؟؟

حتماً . . حتماً سيفعل . . حتماً سيثمر إفطاره اليومي الإجباري على حساء الكراع عن قوة هائلة.أمه تؤكد أن الحساء يتمركز في القدمين ، وأنه للقوة . والهدير العنيف في داخله عندما يضيع هدفاً يؤكد أنه قوي ، وأنه هداف ، وسيعجبهم وهو يسدد الأهداف وسيحملونه على أكتافهم .

متى سيتم مشاركته لهم متى ؟؟ .. متى ؟؟ سؤال حائر لا يعرف له زمن إجابة.

كلما جلس أمام والده سأله :

– متى أركض خلف الكرة ؟ متى أشاركهم يا أبي ؟

– عما قريب يا ولدي ستشاركهم اللعب لا تتعجل الأمور، ستحقق كل ما تتمناه بإذن الله.

يربت على قدميه ، بهاتين القدمين القويتين ستحرز أهدافاً كثيرة.

– متى يا أبي . . متى . . ؟

– لا أدري كل الأمور بيد الله ، ولها أوان.

– يلتزم صفوف المتفرجين والمشجعين ، ويحلم باليوم المنتظر في ألم يكتنفه الأمل.

قالت الأم تعبنا من الأطباء . . قيل لها اذهبي به إلى أحد حكماء النفس.

– جربنا الأول والثاني والثالث و. . . .

– إنه لا ييأس من روح الله إلا . . .

– ونعم بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله. جلس الجميع حول الرجل «الحكيم» . . قلب الأمر على أوضاعه.

– بسيطة . . مشكلتكم أمرها سهل . .

أريد أن لا يعرف الولد شيئاً عن هذا، أريد أكبر قدر من الانفعال يتولد مع المفاجأة بالموقف.

هيا نفذوا الأمر مساء هذا اليوم ، ووافوني جميعكم بعد ثلاثة أيام.

كان وقع حديثه جللاً ، أفزع قلب أمه ، واعتبره والده غير معقول ، ولكن لا مفر من التجربة ، لا مفر.

قالتها الأم ، وأتبعتها : لا أدري إن كان سيحتمل قلبه وضعاً كهذا، مسكين ياولدي ! أتعبناك بالتجارب ، لكنها من أجلك . . من أجلك فقط.

خرج الأب من حينه ، وقلبه يكاد يطير من صدره خوفاً وطمعاً ، وانتظر إلى أن حل الظلام . حمل ابنه ذا العشرة أعواماً معه بالسيارة.

– قال الولد : إلى أين يا أبي ، لم نعتد الخروج ليلاً ؟

– مشوار قريب يحقق لك أمنية ركل الكرة والتهديف.

– صحيح يا أبي ؟

– نعم . . نعم ، وعليك أن تكون رجلاً وشجاعاً وتتعامل مع الموقف كرجل.

– ماذا تعني يا أبي ؟

– سترى لا تتعجل الأمور.

– حمله دخل به مكاناً صامتاً ، تحيط به أسوار عالية لا حياة . . لا ضوء . . سوى أزيز الحشرات.

اقشعر جلده وانغرست شعيرات جسمه كدبابيس في جسده.

الوالد يكمل كلماته «السلام على دار قوم مؤمنين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

– أين نحن يا أبي ؟ ما هذا المكان ؟

– إنها المقبرة.

– ما معنى المقبرة ؟

– إنها بيت الموتى.

– أبي ! ما لنا نحن يا أبي وبيت الموتى ؟ نحن أحياء أنا خائف!!

– ستبقى هنا الليلة.

– وأنت معي ؟

– لا . . لا . . سأغادر وآتيك صباحاً.

– من المؤكد تمزح معي يا أبي! أليس كذلك؟!.

– بل ستبقى وستكون رجلاً.

وضعه على الأرض وهو يحاول فك ذراعيه المتشبثتين برقبته وقفل راجعاً، بينما قلبه يذوب ألماً، ونواح فلذة كبده نشيج تنشق له القلوب، ويقطع سكون المقابر.

تحول صوت ابنه إلى ألم يتلبس فؤاد أبيه وهو ينادي:

– أبي .. حبيبي .. لا تتركني مع الموتى . . أبي أنا خائف . . أبي حبيبي . . خذني لأمي . .

والمسافة بينهما تزداد والطفل يلوح بيديه يمسك بالهواء . . وعيناه تتابعان أقدام والده المبتعدة.

التفت والده إليه، كاد يعود، تذكر أمنية ابنه بركل الكرة . . استدار وتابع عودته إلى بيته، ونار تتقد في وجدانه.

تناول حبة دواء منوم، وغاب عن الواقع قسراً.

في بيت الوحشة . . تكور الفتى على ذاته، وأشباح الموتى تتراءى له حقيقة.

جحظت عيناه، ورفرف قلبه خارج جسده، وتحول الخوف إلى مشنقة للحياة . . إلى رعب . . بعد ما خذلته قدماه في حمله خارج بيت الموتى كما خذلته في ركل الكرة . . انتفض جسده الصغير، وارتعش إلى أن سكن.

أشرقت الشمس ليوم شعاعه مختلف، وجاء والده يسبقه الأمل . . يراه من بعيد متكوراً، والأمل مفرودة قامته.

جاء مستشعراً فرح الكون في أن يكون قد تخلص ابنه من عاهة عجزه عن المشي، وأن الفزع قد ساعده للتخلص من هذا العجز، وأصبح قادراً على المشي والارتماء في أحضانه، جاءه وكرة قدم بين يديه ليركلها ويجري خلفها، جاء ليصبح قادراً على أن يفعل ما كان يفعله وهو صغير قبل عجزه.

اقترب والكرة بين يديه تسبقه إلى ابنه . . اقترب منه . . وجد وجهه معفراً بالتراب . . ورأسه معفراً مستنفر الشعر . . انفلتت الكرة تتدحرج بجوار ابنه . . انكفأ عليه يهزه بعنف.

صاح مرعوباً: ابني حبيبي . . ابني حبيبي . . ربي ..! ربي ..! إلهي ..! مولاي!! ارحمني.

أدرك الحقيقة المهولة . . بكى وعفّر وجهه بالتراب.